

وإذ دقّ قشور البيض فقد وقع على لون العاج؛ وأكمل الظلال والفوارق المختلفة بالتؤنجات أو الثمار العنبية أو ورائم الأزهار؛ ولكي يُلصقها فقد خلطها بالصمغ الذي انتزعه من جذوع أشجار اللوز.

عندما سنحت الفرصة لزيارة جديدة إلى «اليونانيين» حضر «ماني» ومعه مجموعته التي شرع يفكّ غلافها من غير تهجّل. وفي أتون صيف (ما بين النهرين) عبقت الأصباغ والصمغ بروائح شتى. وعندها ذهب «شارياس» و«مالكوس» إلى الشرفة للحديث كما يتحدث أب وابنه في ظلّ نخلة سامقة، في حين كانت «كلوويه» تقطع قطع البطيخ ليغمسوا فيها جميعاً أفواههم الظامئة.

وإذ اقتربت من «ماني» لإعطائه نصيبه فإنها لم تلمح غير ألوان مختلطة، أزرق غائم في البعيد، ثم شواطئ غير محدّدة، ترابية أو بلون الدم. وظلّت واقفة خلفه تنظر. وما هي إلّا أن ظنّت أنها تكتشف وجهاً من خلال تشابك الخطوط والألوان. وكانت أصابع «ماني» تستدير حوله فتوضّح قسّماته مع كلّ استدارة. وظهر شخص ربّما قيل فيه إنه مسافر يبرز من ضباب خريفيّ، وبدا حاجباه وأنفه وشفتاه وكأنها تجتاز الجدار للجلوس إلى وليمة الأحياء.

زادت «كلوويه»، وقد سُحرت، اقتراباً من المراهق الذي قطع عمله وتقهقر خطوة لتأمل بطله. وكان وجهه مُبلّلاً فرفعت ابنة «اليوناني» بحركة بريئة ذيل قميصها لتجفّف قطرة قطرة العرق الكثيف عن الصدغين وحول العينين وفوق الزّغّب الخفيف حيث كانت تتلألأ أيضاً بعض القطّيرات تتلألأ الندى وقد احتجزه العُشب. ولقد كان «ماني» يُحبّ شميم رائحة «كلوويه» اللطيفة، عرّف الثمار الكيسّ ذاك، بيد أنه لم يكن يشمّها في تلك اللحظة، بل كان يستنشقها، وكانت تملأ الهواء من حوله وتلقّه وتجتاحه. وفي كل مرة كان ثوب الفتاة يلامس فيها وجهه كانت حركاته تفتّر ونفسه يرقّ وعينه تضيقان. وسرعان ما لم يعد يرى سوى فرشاته، تلك القطعة من القصب التي كان يحملها بغياء مرفوعة إلى مستوى شفيتها. وتعلّق بها نظره وكأنّ كلّ ما تبقي قد توقّف فجأة عن الوجود. فمن جميع أعضائه، من بدنه برمته، لم يكن يشعر، لم يكن يعرف غير هذه اليد